ترجمة نص لإدغار موران من كتابه الثاني

«في المنهج: حياة الحياة»

للدكتور: العمري حربوش (*)

تقديم المترجم:

لا يستطيع أحد اليوم أن يبني معارفه على أساس اليقين، ولا على علم نهائي بحقائق الأمور؛ **لذلك:** فإنَّ البحث في (المنهج)، بالنسبة إلى إدغار موران(٢)

(*) أستاذ الفلسفة بجامعة محمد لمين دباغي، سطيف ٢، الجزائر.

(٢) إدغار موران (Edgar Morin)، ولد بفرنسا (باريس)، سنة (١٩٢١م) فيلسوف، وعالم اجتماعي، وأنثروبولوجي، من أصعب المفكرين تصنفًا بحكم نظرته الموسوعية، وهدفه المتمثل في بناء أسس لمعرفة متفتحة، ومحاولة تحليل تركيبية الواقع دون تحريف العلوم ودون حواجز بين النشاطات، ودون تفضيل بعضها على بعض، ودون التسليم المطلق بصدقها، وقد أعلن ذلك في كتابه

Edgar Morin لا ينطلق من أرضية صلبة، لكن من أرضية هشة ومنهارة.

إنَّ أساس هذا البحث (المنهج) هو ضياع للأساس العلمي؛ لذلك: فإنَّ المعطيات العلمية التي تغذي هذا البحث لا تمثل بأي حالٍ قاعدة، وعلى العكس من ذلك؛ فإنَّ تحويل هذه المعارف وهذه المعطيات، هو الذي يشكل المحرك. إنَّ الأفكار المهدمة تتحول إلى أفكار من أجل إعادة البناء؛ لذلك: انطلق موران، ليس من النظام، بل من الفوضى، على حد تعبيره.

لا يهدف المنهج التركيبي إلى بلوغ اليقين الضائع، لكنَّه على العكس من ذلك، يُمثِّل فكرًا يتغذَّى على عدم اليقين. إنَّ ما ينشِّط هذا البحث هو بشاعة هذا الفكر المزَّق، ورفض المعارف المفككة، والمشرذمة، والمصغرة، والمختزلة، والمطالبة بالحق في التفكير. لا يمثل العمل المسمى بـ (المنهج) La méthode موسوعة، ولا ينطلق من (لوحة بيضاء) Tabula-rasa[1]، لكن من لوحة ممتلئة Tabula-encombrata[2]، بالمعارف المعاصرة. ليس (المنهج)، حوصلة لمنظومة عامة، ولا هو بمراجعة، ولا هو بكتاب علم، ولا هو بكتاب فلسفة، إنَّه سفر إلى السطح البيني لكل منهم، بهدف التزويج المتبادل للبعض مع البعض الآخر؛ بل إنَّه سفر للبحث عن نمط من التفكير الذي يحترم تعددية الأبعاد، والغنى، وسر الواقع، ومعرفة الحتميات الدماغية، والثقافية، والاجتماعية التي يتلقاها كل تفكير موضوع المعرفة، وهذا ما يسميه موران بالفكر المركب Pensée complexe. **بمعنى آخر:** إنَّ السلسلة الكُتُبية التي تحمل اسم (المنهج)، لا تمثل تطويرًا لخطاب في المنهج، بل تطويرًا للبحث عن منهج.

«البراديغم الضائع» (Le paradigme perdu)، سنة (١٩٧٣م) يشتغل كمدير للمركز الوطني للأبحاث العلمية (CNRS).

(١) هو مصطلح فلسفي إبستيمولوجي، مفاده: أنَّ الإنسان يولد، وهو صفحة أو لوحة بيضاء، ويكتسب كل شيء بالتجربة.

(٢) هو مصطلح فلسفي إبستيمولوجي، مفاده: أنَّ الإنسان يولد، وهو صفة مكتوبة، أو لوحة ممتلئة.

في الجـزء الأول مـن (المنهـج) يلخـص مـوران خصائـص بحثـه في كلـمات: «هـو تَعَلُّـمُ كيـف نَتَعَلَّـمُ» ويواصـل قولـه: «إنَّنـي لا أقـدم المنهـج، بـل أسـعى إلى البحـث عنـه. إنَّنـي لا أسـعى بمنهـج، بـل أسـعى إلى رفـض بوعـي الاختـزال. وباختصـار، السـعي إلى تركيـب مـا تـم فكـه، وتفريقـه».

النـص المترجـم الـذي بـين أيدينـا مأخـوذ مـن الجـزء الثـاني مـن (المنهـج) والـذي يحمـل عنـوان La vie de vie (١٩٨٠م)، أي: حيـاة الحيـاة، وهـو أكـبر الأجـزاء مـن حيـث الحجـم (٥٠٠ صفحـة)، اخترنـا منـه نصًّـا للترجمـة مـن الصفحـة (١٩) إلى الصفحـة (٢٥). يبـدأ مـوران في هـذا الجـزء بتقريـر بعـض خصائـص بحثـه، والتـي أشرنـا إليهـا في الأول، ثـم ينتقـل إلى بيـان الحاجـة إلى التفكـير في الحيـاة La vie بعـد التطـور الـذي شـهدته العلـوم البيولوجيـة، خاصـة الهندسـة الوراثيـة، وظهـور مـا يسـمى اقتصـاد الحيـاة، وهـو مـا يشـكل، مـن دون شـك، خطـرًا عـلى الكائنـات الحيـة بمـا في ذلـك الإنسـان.

إنَّ هـذه الثـورة في مجـال علـوم المـادة الحيـة، لـم تسـايرها ثـورة مفاهميـة ممَّا أحـدث فجـوة بـين تطـور العلـم، والتعبير عنـه، ولعـلَّ مـن بـين المفاهيـم التـي لـم يسـتطع العلـم البيولوجـي التعبـير عنهـا: مفهـوم الحيـاة La vie؛ بحيـث لا نعـثر إلى يومنـا هـذا عـلى تعريـف يسـتطيع الإحاطـة بهـذه الكلمـة (الحيـاة). والغريـب في الأمـر، وعـلى حـدٍّ تعبـير مـوران، أنَّـه كلـما أردنـا الإمسـاك بـه (المفهـوم)، يفلـت منَّـا، ويُظهِـر تسـاؤلات جديـدة تلغـي سـابقتها.

في هـذا الكتـاب، أي: الكتـاب الثـاني مـن المنهـج (حيـاة الحيـاة)، لا يجامـل مـوران البيولوجيـا ولا يرفضهـا، إنَّـه كتـاب مسـاءلة البيولوجيـا، والتفكـير في القضايـا التـي تطرحهـا والأفـكار التـي تقدمهـا وتقترحهـا. إنَّ (مـوران) في هـذا الكتـاب لا يتأمـل البيولوجيـا بمنهـج راقٍ، لكنـه مقتنـع بـأن المعرفـة البيولوجيـة هـي في ذاتهـا تسـمح بظهـور منهـج تكامـلي Méthode complexe. فهـذا العمـل (الكتـاب الثـاني مـن المنهـج) ليـس محاولـة لمعانقـة الحيـاة، ولا أن

يجعل منها نتيجة، ولا أن يجعل من البيولوجيا فلسفية. فالبيولوجيا بهذا المعنى ليست علمًا يسألنا فحسب؛ بل هي علم يتحول إلى مسألة في حد ذاته.

تشكل الحياة في نظر موران مجمع المتضادات والتناقضات؛ فهي ظاهرة فيزيائية، وتختلف عن الظواهر الفيزيائية الأخرى، وهي نوع، وفي الوقت نفسه، فرد، لها بداية ونهاية، وهي أيضًا تمثل دائرة، وحلقة، وعملية متواصلة، إنَّها ثابتة ومتغيرة في آنٍ واحد. تمثل الحياة قمة التعقيد، سواء في تعريفها أو في التعرُّف عليها؛ لذلك: يطرح موران سؤاله المبدئي، والذي لا مفرَّ منه، وهو: ماذا يميز الحياة حتى تفلت من التفسيرات الفيزيائية، والكيميائية، والسيبرانية؟ كيف يمكن، في الوقت نفسه، التفكير في اللَّا حياة، وحياة الحياة؟ لذلك: يصف موران كتابه الثاني بأنَّه عملية فهم للأساس المعرفي الذي يقربه لمعنى الحياة، وليس فقط معرفة الحياة، لكن، معرفة، معرفة الحياة.

النص المترجم[1]:

(١) نظام البيئة:

«لا نرى في بيئتنا حين نتأملها إلَّا نظامًا ثابتًا، نظام الساعة الحائطية. يجد نظام الثبات هذا، أساسه في الصخر تحت الأرض، كما يجد دوامه في أديم الأرض، ومع أشجار الغابات الكبيرة التي تسمو بالأعمدة الحية نحو السماء. إنَّ نظام الساعة الحائطية هو نظام دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس، ذلك الدوران الذي يصنع أثره التعاقب المنتظم للصحو وللنوم، ويطلق في حينها صوت العندليب وصياح الديك، ويعلن للنسر وللثعلب والأسد عن بداية الصيد، وحركة الماشية نحو منبع الماء. وموسميًّا يعيد تساقط أوراق الشجر، وظهور البراعم، وتمزق الشرانق، وشبق الذكور. إنَّ النظام الفيزيائي يمتد في نظام العالم الحي، تحكمه «برامج وراثية/جينية»

(١) إدغار موران «المنهج (٢): حياة الحياة»، (١٩٨٣م)، (ص/ ١٩-٢٥).

- Edgar Morin «La méthode (t.2). La vie de la vie», Paris, Seuil, 1983. P. 19-25.

صانعة الثبات والاطراد، وبهذا تبدو الطبيعة في شكل دوام، وانتظام، ودورة.
- بالرغم من ذلك سواء كان تأملنا فيه للأمد البعيد أو القريب، يفاجئنا هذا النظام بتذبذبه، وبتشققه؛ ففي خلال مئات من الملايين من السنين، تشقق باطن الأرض وتزحزح عن مكانه، وانثنى لحاء الأرض وارتفع وتدلى، وانحرفت القارات، وغمرت المياه الأرض كما أخرجت الأرض مياهها. الغابات الاستوائية والصخور الجليدية تتقدم وتتراجع ويحفر الانجراف، ويسوي، ويسحق.

- وبالنظر من قريب وإلى المدى القريب، لا نرى إلَّا الهرج والمرج، في أحادي الخلية، والحيوانات المجهرية، وفي الغابات، والأدغال، والسافانا، وغابات أطراف المتوسط تتزاحم وتتدافع النباتات المختلطة فيما بينها ومع الطفيليات، أمَّا الحشرات فهي مشوشة في حركتها غير منتظمة، وحيوانات الأرض وحيوانات السماء غريبة التصرف، وفي كل مكان التهام ذاتي دائم، في الحياة آكلة الحياة، معركة شرسة للكل ضد الكل، حيث يصطاد بعضه البعض، ويلتهم بعضه البعض، ويحطم بعضه البعض في فوضى، القانون فيها هو قانون الغاب.

- كيف يمكن الجمع بين النظرتين؟ إلى هذا الحد تتنكر إحداهما إلى الأخرى، فالواحدة منهما مصنوعة من نظام وتناغم، والأخرى من فوضى وصراع. كلتا النظريتين متناقضتان لكن كل منهما حقيقة، إلَّا أنَّ كلتا الحقيقتين لا تجد دلالتها إلَّا في فكرة المنظومة البيئية éco-système، وفي فكرة النظام البيئي éco-organisation.

المنظومة البيئية، هذه الكلمة تفيد بأنَّ مجمل التفاعلات تجري ضمن وحدة جيوفيزيائية معينة تحتوي على مجموعات حية تمثل وحدة مركبة ذات طابع تنظيمي أو منظومة «بالنسبة إلى التعريفات المنظومية الأولى، المشار إليها في الكتاب الأول في المنهج (ص/ ١٠٥، ١٠٦) ». هذا يعني أنَّ علينا أن نعتبر البيئة والمحيط بمثابة نظام وقيود وحتميات، وشروط

(الوسط) لا بمثابة فوضى (من هدم، والتهام، وخطر) فحسب؛ بل كذلك بمثابة (نظام) مثله مثل أي نظام مركب Organisation complexe يتضمن/ ينتج الفوضى والنظام.

هذا ما سنراه؛ فالبيئة التي يُنظر إليها على أنَّها تشكل وحدة بين (موئل إحيائي، وجماعة حيوية)، هي تمامًا نظام، بمعنى كلّ منتظم ابتداء من التداخل (التفاعل) بين مكونات (بيولوجية، وجيوفيزيائية)، بل هي تمامًا وحدة مركبة أو يونيتا Unitas [1]، أي: وحدة متعددة الأماكن والفضاءات تحتوي على تنوع خارق للعادة في الموجودات من أحاديات الخلية، والنباتات، والحشرات، والأسماك، والطيور، والثدييات (أي: مليوني نوع من الحشرات، مليون نوع من النباتات، ٢٠٠٠٠ نوع من السمك، و٨٧٠٠ نوع من الطيور، في محيط ودائرة الكائنات الحية المتنوعة: إنَّها منظومة منتجة لمظاهرها، ليس على المستوى الكلي فحسب؛ بل على مستوى الكائنات التي تُؤلفها، والتي تُظهر خصائص لولاها لَـمَا كانت فيها (المنظومة) وهي منعزلة.

إنَّه النظام الذي يفرض قيوده وقوانينه، ويقمع إمكانية الحياة أو الفعل، وذلك بتحطيم ما لا يقدر على الاندماج، وذلك بسن قوانين التهديم، والالتهام (التآكل) المتبادل.

ومثلما سنرى؛ فإنَّ العلاقة بين الكل والأجزاء، علاقة مبهمة ومعقدة إلى أقصى الحدود، ذلك ما يجسده مبدأ «مشار إليه في الكتاب الأول في المنهج (ص/ ١٠٦ - ١١٥، وص/ ١٢٦ - ١٢٨) » أنَّ الكل، هو في الوقت نفسه، أكثر وأقلّ من مجموع الأجزاء، وأنَّ الكل أكثر وأقل من الكل، وأنَّ الأجزاء هي أكثر وأقل من الأجزاء، وأنَّ هناك انقسامًا، وثقبًا أسود، ومنطقة مظلمة داخل الكل، وفي التفاعل بين الأجزاء. مثل أي منظومة فعالة، المنظومة البيئية، هي، في الوقت نفسه، مركبة ومفككة بسبب هذه التفاعلات الداخلية.

(١) كلمة لاتينية استعملها الكاتب للدلالة على الوحدة.

- تِلكم هي المشكلة. لقد رأينا في (كتاب المنهج ١ ص ٦٠) ذلك التركيب التنظيمي من خلال تأمل الشموس (جمع شمس) (أكثر صعوبة في النظر إليها من جهة المعنى، عن النظر إليها بالعين)، فهي من عجائب الأنظمة الذاتية، من دون أجهزة ولا برامج، وهي في هذا الكون بالملايير تنشط كلها. ولقد كنا منبهرين حين عرفنا أنَّ الملايير من الشموس العظيمة المسماة بالنجوم، والتي تمثل نواة ومرتكزات النظام الكوني، تقوم بصيانة نفسها بانتظام وعفوية انطلاقًا من جنون وغضب عجيب وملتهب. إنَّ التعجب هنا هو نفسه -من الشدة- وغيره في آنٍ واحد؛ لأنَّ الآلة البيئية، لا تتألف من جسيمات وذرات فحسب؛ بل ومن كائنات حية، وزمر شديدة التنوع والتركيب، تتنافس فيما بينها وتتناحر.

- كيف يمكن لهذا الهرج والمرج العجيب من صراع، وامتصاص، وافتراس، والتهام، وأنانية، وأنانية اجتماعية، أن يصنع نظامًا بيئيًّا مضبوطًا بهذا الشكل؟ كيف يمكن لهذا الإنبات العبثي والعفوي، وهذا التفريخ والفقس، وهذا الموت، وهذه المجزرة، أن تغذِّي الآلة البيئية الجد هادئة؟ تطرح هذه المسألة خصوصًا حين كان النظام البيئي بمثابة النظام العفوي المبني على أسس جيوفيزيائية حتمية، ومحددة وراثيًّا (جينيًّا Génétiquement)، **يصنع نفسه من نفسه**، دون تشجيع أو إكراه من برنامج أو مخطط، ودون أن يكون له ذاكرة مستقلة، ودون حسابات خاصة، دون أن يُرتِّب أو يوجِّه بواسطة جهاز مراقبة أو تنظيم أو قرار أو حكم. على العكس من ذلك، كل النظام البيئي ولد من فعل (أناني - ذاتي) وتفاعل (أحسر البصر)، ومن تواصل داخلي مغرق في الغموض، والضجيج، والخطأ، وفي الأعشاش أو في وسط ذي سياج ولا حدود، متفتح على التيارات الهوائية، وعلى الهواء، والماء، ومتفتح على مجرى الحياة الوحشية (المتهربة، والخارجة عن القانون، والفارة من الأنظمة البيئية)، والمتفتحة على مجرى الموت (الفيروسات، والأوبئة). وعبر هذا التدافع الأعمى، والأحسر

البصر، والأناني، ووسط الغموض، والهدم، وهذا التكاثر الذي لا يوصف ينظم مثل هذا الكون - Unwelt [1]- نفسه. هي أعجوبة، حين نعثر على نظام وفي آنٍ واحد الإفراط في التنوع، وفي الفوضى، وفي غياب الجهاز المركزي الذي من المفترض منطقيًّا أن يمنع كل تنظيم: إنَّها أعجوبة حين كان هذا النظام ليس هشًّا، وغير مستقر أو غير متزن فحسب؛ لكنه صلب، ومستقر، ومضبوط. وهو أعجوبة ليس برده إلى أبسط عباراته، على العكس من ذلك، نقله إلى أعقد العبارات: وهو (النظام) كذلك أي معقد على وجه الدقة؛ لأنَّ فيه تجتمع الوحدة والتنوع، وفيه يجتمع النظام والفوضى، تجتمع فيه الصلابة والتضاد، كلها إلى أقصى الحدود، **ليس فقط في تعايش مشترك، بل ترتبط بفعل الضرورة.** إنَّ علاقة الضرورة هذه، هي التي علينا شرحها إذا أردنا الإحاطة بمسألة العفوية التنظيمية- البيئية.

(٢) التكاملية الكبرى (التجمع، التناغم (التعايش)، التطفل، الامتصاص، الافتراس):

من النظرة الأولى، يمكن القول بأنَّ التفاعلات التي تحدث بين الكائنات الحية مجتمعة، إمَّا ذات طابع إضافي تكاملي (من إتحاد، وشراكة، وتعايش، وتعاون)، أو ذات طابع تنافسي (من تسابق، وتنافس)، وإمَّا ذات طابع خصومي (من طفيلية، وامتصاص، وافتراس). إنَّ الشركاء من الكائنات الإضافية و/ إمَّا المتحدة، متعددة في العالم الحي. المهم قبل كل شيء، على الأقل من أجل الذاكرة، نتحدث عن ارتباطات أحادي الخلية ذات مصدر الأنظمة النباتية والحيوانية، والإشارة إلى أهميتها التي لطالما كانت مجهولة، وكذلك الإشارة إلى الزمر الاجتماعية التي هي غير استثنائية فحسب؛

---

(١) (Unwelt) مصطلح من إبداع البيولوجي وعالم الطبيعة الألماني (Jakob Johann von Uexküll)، (١٨٦٤ - ١٩٤٤م)، سنة (١٩٠٩م) يدلُّ على مفهوم الكون الذاتي (Univers subjectif) الخاص بكل نوع: ينقسم هذا الكون إلى عالم الفعل وعالم الإدراك يربطهما عالم داخلي. وقد وُظِّف هذا المفهوم في مجال علم السلوك ((العادات) الكلاسيكي (Ethologie).

بـل الأكـثر شـيوعًا في وسـط الحـشرات والفقريـات.

ترتبـط أنـواع النباتـات بصـورة محـددة وفقًـا لبيئتهـا ومحيطهـا Biotope، ووفقًـا للنشـاط البيئـي، أو مـا يمكـن أن نسـميه مجـازًا سوسـيولوجيا نباتيـة Phytosociologie [١]، لكنـه ذو دلالـة. وبشـكل محتشـم يكـون التناغـم والتعايـش والتجمعـات، في الوقـت نفسـه، مسـتديمًا ومتبـادلًا، وهـو وسـيلة انتفـاع بـين أنـواع مختلفـة. هنـاك أنـواع مـن التعايـش والتناغـم: - بـين النباتـات (الأشـنات Lichens مشـاركة ومعايشـة الفطـر مـع الطحلـب، فـالأول يوفـر للثاني المـاء والأمـلاح المعدنيـة، وثـاني أكسـيد الكربـون، بينـما الثـاني، يقـوم بجمـع المـواد العضويـة الضروريـة لحيـاة الأول) - بـين الحيوانـات والنباتـات (التعايـش والتناغـم بـين الأولنيـات Protistes، وهـي عنـاصر مجموعـة المتعـضي المجهـري، والإسـفنجيات وهـي نسـيج مـن الحيوانـات مـن نـوع الإسـفنج، مـع الطحالـب أحاديـة الخليـة. وأنـواع أخـرى مـن التعايـش: (بـين النمـل (قاطعـة أوراق الشـجر)، والفطـر الـذي يحملـه)، بـين الحيوانـات (السـلطون الناسـك Bernard-lermite [٢] وشـقائق البحـر Actinie): بـين عضوية مضيفـة، وعضوية دقيقـة تسـكن أمعاءهـا، حيـث تقـوم بتهديـم المـواد التـي تعجـز المضيفـة عـن احتوائهـا. وأخـيرًا: إنَّ ترويـض الإنسـان للنباتـات وللحيوانـات تسـبب، هـو بـدوره، في ظاهـرة التعايـش: مـن هـذا مثـلًا، النباتـات المزروعـة تفقـد خاصيـة المقاومـة والتكيـف، ولا يمكنهـا تجـاوز مـا يقـدم لهـا مـن عـلاج مـن طـرف المـزارع ضـد الطفيليـات والنباتـات الضـارة. كـما أنَّ المـزارع لا يمتنـع عـن الاسـتفادة مـمَّا تقدمـه النباتـات مـن منتـوج.

- المتعاونون (التعاونيـة) Mutualismes: علاقـة حيويـة ضروريـة بـين الكائنـات

(١) (Phytosociologie) نشـاط مـن علـم النبـات يهتـم بدراسـة التجمعـات النباتيـة، وهـو فـرع مـن الدراسـات حـول الحيـاة النباتيـة، أو يمكـن أن نسـميه بعلـم الاجتـماع النبـاتي.

(٢) (Bernard - lermite) نـوع مـن القشريـات التـي لـكي تحمـي نفسـها تسـكن تحـت صدفيـة قشـيري آخـر.

الحيـة المختلفـة والمتنوعـة. يمكـن اعتبارهـا نوعًـا مـن التعايـش الـذي لا ينقطـع إلَّا بمـوت الـشركاء. مـن هـذا، التطاعـم والطريقـة التـي بهـا يسـتفيد الحيـوان مـن تغذيـة آخـر، دون التفريـط في هـذا الحيـوان: يكـون كل مـن الضبـاع وبنـات آوى، والنسـور، وغيرهـا، تتغـذى مـن بقايـا طعـام الأسـود والنمـور.

- المتعايشـون Symbioses: التعايـش والتعـاون وبشـكل عـام التوافـق والاعتـماد المتبـادل لطـرف عـلى آخـر، يمثـل علاقـات في شـكل دوائـر، حيـث يلبـي أحدهـما حاجـة الآخـر، مثل: شـكل اتحـاد الأعمـى بالمُـقعَد أو المشـلول، يحـول التعايـش كلا المعوقـين إلى كائـن عاجـز ذي رأسـين. هـذا النـوع مـن العلاقـة الـذي يسـتقر بـين النشـاطات الحيويـة لمختلـف الأنـواع، يمكـن أن يتخـذ أشـكالًا متعـددة ومعقـدة، مثـل العلاقـة: الزهور/النحـل حيـث تتغـذى النحلـة عـلى الطلـع، وتسـاهم في نـشره، بمعنـى تسـاهم في تنشـيط الـدورة الحيويـة للبيئـة، وإصابتهـا بالطفيليـات في آنٍ واحـد.

إنَّ كل هـذه العلاقـات مـن الشراكـة، والحاجـة المتبادلـة، والتكامـل المتبـادل، لا تشـكل جـزرًا للنظـام في المنظومـة البيئيـة فحسـب؛ بـل تمثـل أرخبيـل النظـم البيئيـة.

لكـن جـزرًا مـن التكامل/الوحـدة تغمرها محيطـات مـن الطفيليـات، والمتنافسـين، والمضاديـن، والمهدمـين، وبهـذا يتفـشى التطفـل في عالـم (البكتيريـات، والفطريـات، والدبـق ... إلـخ)، وفي عالـم الحيـوان (البراغيـث، والقمـل، وبراغيـث المناطـق الحـارة التـي تعيـش تحـت الجلـد، والقـراد، واليرقـات الطفيليـة، وطائـر الوقـواق الـذي يحتـل أعشـاش طيـور أخـرى ... إلـخ).

تعتـبر الطفيليـات مسـتعبدات محليـة محمولـة عـلى جانـب مـن النظـام المصـاب، الـذي في حينـه يغـذي الطفيـلي أكـثر مـمَّا يفعلـه لنفسـه.

مـا زال المتنافسـون أكـثر انتشـارًا مـن الطفيليـات. إنَّهـا تتحـرر، في مملكـة الحيـوان، وفي وسـط الأنـواع والمجتمعات،

أكثر من تحررها بين الأنواع المختلفة. ليس المتنافسون أقل علوًا في المملكة النباتية.

تتزاحم الأشجار وهي ترتفع نحو الشمس، وتقاوم النباتات من أجل الضوء، وتتدافع، وتتسلق بعضها فوق بعض، وتشن حروبًا كيميائية تحت أرضية، مع إفراز مكبّح النشاط، والهرمونات، والمضادات الحيوية، وتتصارع من جذر إلى جذر من أجل حفنة من الجزيئات.

في البساتين الأكثر سقلًا يمنع الفجل بذرة الرشاد من النمو في محيطه، إنَّ التنافس النباتي يمتد إلى حدِّ إفراز مواد قاتلة تقضي على المنافس.

وأخيرًا: يثير الاضطراب التغذوي للمملكة الحيوانية، الظاهرة الكونية، الحتمية وغير المنقطعة لسلسلة الامتصاص، حيث يؤكل النباتي من طرف آكل الأعشاب (النباتي)، وهذا الأخير نفسه يؤكل من طرف اللاحم، وهذا الأخير بدوره سيؤكل.

يبدو للوهلة الأولى: أنَّ الطابع المنظم لِمَا هو ترابطي، وتضامني، وتعاوني، معارض للطابع الفوضوي، والتهديمي لِمَا هو تنافسي، ومفترس، وامتصاصي. لكن للوهلة الثانية، تبدو هذه المعارضة مبهمة ونسبية. إذا اعتبرنا على العموم مثلًا، العلاقة: حيوانات/نباتات، هذه الأخيرة ليست مطبوعة بالطابع الامتصاصي Biophagique الحيواني فحسب؛ بل كذلك بطابع التعايش المعمم الذي تضمنه الدائرة أكسجين/غاز أكسيد الكربون للبعض إلى البعض الآخر.

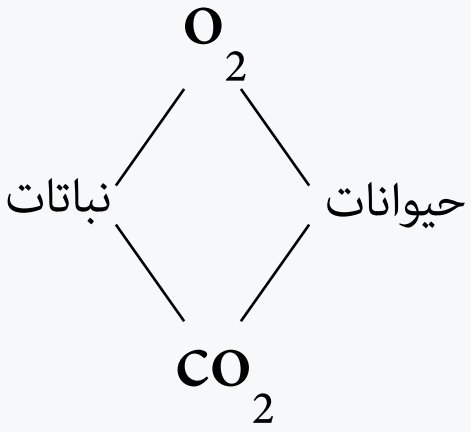

إنَّ العدوانية والتكاملية تستبعد إحداهما الأخرى، ليس هناك شيء أكثر تكاملًا من التداخلات التي تؤلف السلسلة الغذائية التي تعيد تنظيم

حياة المنظومة البيئية (cf p.٢٨)، لكن هي كذلك سلسلة امتصاصية حيث المفترس يأكل الفريسة التي بدورها تأكل فريسة أخرى، التي تأكل بدورها النبتة، وهذه الأخيرة التي تتغذى على تحلل كل الميتات المتراكمة والمجتمعة.

في الحقيقة: الافتراس المتسلسل هو الذي يؤسس السلسلة المغذية. إنَّ الافتراس ليس تهديمًا محضًا (خالصًا) لحياة حيوانية من طرف أخرى.

تبيّن المنحنيات الديموغرافية لفترة طويلة، وفي حالة محدودة ومثالية حيث يعيش نوع من الأنواع المفترسة على نوع خاص من الفرائس، أنَّ النقص في عدد الفرائس يتسبب، بفعل المجاعة، في تدني عدد المفترسين؛ ممَّا يسمح بالزيادة في عدد الفرائس، وهي الزيادة التي بدورها تواصل الجيل (الآكلين) وهكذا وفقًا لسبب تراجعي، حيث تكون الوحيدة القادرة على منع حادث خارج الدورة. وبهذا تكون العلاقة المضادة القصوى، تلك المتعلقة بالمفترِس لفريسته، تنتج نظامها الخاص، وتتحول إلى عامل منظم وموجه. إنَّ عملية الافتراس دون أن تكفَّ عن كونها عاملًا مهدمًا، تتحول كذلك إلى عامل محافظ لكل من الآكل والمأكول، وكذلك إلى عامل محافظ للتنوع، ويظهر، في الوقت نفسه، كعامل محافظ لهذه العدائية نفسها المنظمة.

مثلما أنَّ المضادين والمنافسين يحتوون على مكملين منظِمين، يحتوي المتضامنون في طياتهم على المنافسين والمضادين.

أوَّلًا: علينا الإقرار بأنَّ الظواهر المتعايشة يمكنها أن تحتوي في وسطها على الطفيلية، بل تحتوي على المفترسين المتعايشين بواسطة آخر، والبقاء، في آنٍ واحد، متعايشين. وبهذا، هناك تعايش بين المجتر والبكتيريا التي تعيش بطنه، بما أنَّ المجتر يغذي البكتيريات، وأنَّ هذه الأخيرة تمتص سيلولوز النباتات، فهي ضرورية لعملية الهضم بالنسبة إلى المجتر. لكن عندما يحول المجتر الغذاء إلى معدته؛

فإنَّه يتغذَّى على هذه البكتيريات التي تكاثرت في بطنه، ويتحوَّل إلى مفترسهم.

يبقى أنَّ هذه التهديمات الجماعية لا تؤذي ذلك العمق المنتج للمستعمرة.

وبهذا واعتبارًا للدورة الإجمالية للتداخلات؛ فإنَّ المجتر هو العش البيئي، والمغذي، والمنظم، والمتعايش، لمجتمع من البكتيريات، وفي آنٍ واحد يكون طفيلية المكتشف والمستهلك.

والأكثر من هذا؛ فإنَّنا نفترض بأنَّ هناك تطورات أساسية في تاريخ الحياة، يرجع سببها إلى تحول الطفيلية إلى متعايشة، ثم في تداخل متعايش مع آخر: وبهذا يعتقد أنَّ الميتوكوندريات Les mitochondries كانت عبارة عن طفيليات/متعايشات لخلايا حقيقية النواة حيث كانت منسجمة حياتيًا، كما أنَّنا افترضنا بأنَّ بعض الفيروسات الدخيلة على أديان (د ن أ) خلية منتجة، إمَّا أن تكون قد نقلت إليها أجزاء من (د ن أ) من أصل عضويات أخرى، أو تسببت في صحيحات جينية ذات طبيعة تعقيدية. ومن هنا، يكون ظهور التكوُّن العظمي L'ossification عند الحبليات Chordé -أي: ولادة ملتقي الفقريات- قد استطاع أن يحافظ على هذا النوع من العملية، حيث تتحول كل من الطفيلية والتهديم، إلى انسجام تشاركي، وتكاملية منظِمة.

وأكثر عمومًا، يمكن الاعتقاد بأنَّه مثلما أنَّ الطفيليات المتبادلة تتحول إلى متعايشة، فإنَّ العبودية المتبادلة، تتحول إلى مشاركات، وإنَّ الاستغلاليات المتبادلة تتحول إلى مقايضات ومبادلات.

في الاتجاه المعاكس، يمكن أن نلاحظ بأنَّ المشارِكات تبنى بمعارضة البيئة (المحيط)، ومنه تنتج المعارضة. إنَّ بنية التحالف تؤسس أوَّلًا تضامنًا ضد الخارج. إنَّها البرودة الخارجية التي قبل أن تُحدث الحرارة الداخلية، تقود التماس. يطور المجتمع أنانية الجماعة إزاء الجماعات الأخرى أو الكائنات. وفعلًا في كل مكان يشارك المتضامنون العدائية والتضاد.

نضيف إلى ذلك: أنَّ التجمعات أو المجتمعات -غالبًا- ما تحتوي على متنافسين، وعلى صراعات داخلية. تحدث التجمعات النباتية تضامنًا في مجال ادخار الماء وتكييف الوسط، وفي الوقت الذي تتنافس فيه النباتات فرديًّا على استغلال أشعة الشمس، وثاني أكسيد الكربون، وموارد أرضية، تتنافس وتتصارع التجمعات الفقارية، خاصة الثديية منها، حول الغذاء، والإناث، والهيمنة.

وبهذا: وبعد ما رأينا بأنَّ احتواء المتعايشين على المؤيدين، وأنَّ المهدمين يغذُّون الأنظمة البيئية، نلاحظ أنَّ المنافسين، والمتعايشين، والمضادين، يمكنهم أن يكونوا متواجدين في إطار التكاملية والتضامنية. يتحتم علينا التفكير بطريقة مركبة، كل من التضاد والتكامل، أوَّلًا كون أنَّ لهذين المفهومين قاعدة مشتركة: إنَّها الحاجة الوجودية للآخر الذي يتخذ شكلًا، إمَّا افتراسيًّا / طفيْليًّا، أو مشاركًا/ تعايشيًا، من جهة أخرى، لا توجد حدود واضحة تميز دائرة الضدية من التكاملية: على العكس من ذلك، هناك منطقة مبهمة وغير يقينية، على سبيل المثال، بين الطفيلية والتعايش...

إضافة إلى ذلك: كل معنى من المعنيين يحوي الآخر بشكل ثانوي؛ ذلك لأنَّ مثلما رأينا منذ قليل، التضاد ينتج تضامنًا ديموغرافيًّا حاصلًا ما بين المفترسين والفرائس، وأنَّ المتضامنين يصنعون نوعًا من التعارض ضد كل ما هو خارجي عنهم. قل إنَّ هناك، في الوقت نفسه، مقاومةً (معارضة)، ووحدة، وعدمَ قابلية للانفصال، وعدمَ يقين، وذبذبة، وتقلبًا، ومثلما سنرى، حركة دائرية كذلك: غير منقطعة للمتضاد وللتكاملية.

لقد بدأنا نفهم، إذن، كيف أنَّ النظام البيئي يبني، ويتواصل، ليس داخل وبواسطة المشاركات، والتعاونيات فحسب؛ بل كذلك، في وبالصراع، والالتهام، والافتراس، دون أن تنقطع عن كونها مهدِمة، فهي كذلك، بصورة أخرى، مشاركة في التوليد لتكاملية كبرى.